الأمير مولاي هشام في شهادة عن الحسن الثاني

صدمات تعرض لها الحسن الثاني غيرت مجرى حياته

إذا جاز لي أن أتحدث عن الملك الحسن الثاني يمكنني أن أقول إن علاقتي به مرت بثلاث مراحل. في الأولى، كان بالنسبة لي العم الذي أعيشه من خلال والدي. فقد كان الوالد خلال هذه المرحلة يلعب أدوارا جد مهمة في الحياة السياسية المغربية. فبيته كان بمثابة قناة مباشرة بين القصر والخارج. فمن جهة كان، يطرقه كل من استعصى عليه المرور المباشر إلى الملك قصد تسهيل مهمته. ومن جهة أخرى، كان الملك يحتاجه في الحالة التي كان يريد فيها أن يجس النبض حول قضية ما أو موضوع ما. إلى الدرجة التي تحول معها هذا البيت، وهو أساسا بيت محمد الخامس، إلى ما يشبه منتدى للحوار والنقاش الذي لا حدود له غير الاحترام المطلق للملك، الذي كان بمثابة الخط الأحمر الوحيد الموجود.

ومثل هذه النقاشات، التي كنت أحضر بعضها، مكنتني من متابعة العديد من القضايا، وبصفة خاصة من معرفة الطريقة التي يتصرف بها العم في إدارة شؤون البلاد ورؤيته للحياة السياسية وللفاعلين فيها. ولا زلت أتذكر جيدا مثلا النقاشات التي كانت تجري في بيتنا إما حول المعارضة أو معها. مع المعارضة، من خلال الزيارات التي كان يقوم بها لنا بعض قادة حزب الاستقلال والاتحاد الوطني للقوات الشعبية ثم الاتحاد الاشتراكي فيما بعد. وحولها، من خلال النقاشات التي كانت تتم بين الوالد والعم، والتي كانت تتخذ في بعض الأحيان طابع الحدة. وأذكر أن ما كان يثيرني في تلك الفترة هو العلاقة الجيدة التي كانت للوالد مع المعارضة، وبصفة خاصة مع الاتحاديين، كعبد الرحيم بوعبيد وعبد الله إبراهيم وعبد الواحد الراضي، لأن العلاقة مع حزب الاستقلال، التي كانت تتم مع بعض قادته كعلال الفاسي وعبد الخالق الطريس، كان يغلب عليها الطابع الرسمي والتقليدي. ومصدر هذه الإثارة كان يكمن في أنني كنت أعتبر الاتحاديين نوعا آخر من البشر غير البشر الذي أنتمي إليه.
وللتدليل على متانة هذه العلاقة، يمكنني أن أقدم هنا واقعتين. الأولى، تتمثل في أن الوالد وهو على فراش المرض، الذي سيؤدي إلى وفاته، كان قد بذل قصارى جهده لكي يقنع أخاه الملك بضرورة الإفراج عن مصطفى القرشاوي، الذي كان وقتها، بمعية آخرين من الاتحاد الاشتراكي، معتقلا بعد أحداث الدار البيضاء سنة 1981. وإذا كان الملك لم يستجب لهذا الطلب ووالدي حيا، فقد كان أول شيء قام به بعد وفاة أخيه هو تحرير القرشاوي. الثانية، تكمن في أنني كنت شاهدا على تلاسن قوي اللهجة بين أبي وعمي، حيث كان الأول يعارض بشدة اعتقال المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي بعد موقفه الرافض لإجراء استفتاء في الصحراء، محاولا في نفس الوقت إقناع أخيه أنه لا يمكن له أن يحكم لوحده أو بدون معارضة، في وقت كان الملك يدافع عن اختياره ويقلل من عواقبه، مستندا في ذلك أكثر على أنه قام بما قام به دون أن يؤدي ذلك إلى أي رد فعل من الشارع.

هذه الرؤية التي كانت تحكم علاقة الملك الحسن الثاني مع المعارضة، وخاصة الجناح اليساري منها، كانت في بعض جوانبها تعبيرا منه عن رد فعل ضد ما كان يعتبره الاحتقار الذي كانت، أي المعارضة، تنظر به إليه في بداية حكمه. فهي كانت تعتبره دون مستوى والده الملك محمد الخامس، وأنه مجرد حادثة سير، وأن حكمه لن يعمر أكثر

من ستة أشهر...

في هذه المرحلة، سيحدث منعطف هام سيغير حياة الملك الحسن الثاني، ومعه حياة العائلة الملكية، بشكل يكاد يكون كليا. فأن يعرف المغرب غليانا للشارع أو أن يدخل اليسار في مواجهة مباشرة مع النظام، فذلك كان طبيعيا، بالنظر إلى أنه يدخل في إطار الدورة التاريخية التي ميزت تاريخ المغرب، فمثل هذه الأوضاع تكاد تكون بنيوية في المجتمع المغربي، فعادة ما كانت تتصاحب لحظة تغيير في هرم السلطة ببعض الصراعات، ثم إن ذلك كان مرتبطا بأوضاع دولية سائدة كانت تميز المرحلة آنذاك، وتتمثل في صعود الفكر الاشتراكي. ولكن أن يقوم الجيش بانقلاب ضد الملك، فذلك ما لم يكن له ليقبله، لأنه كان بمثابة خيانة له من داخل دار الملك.

ولذلك، وبسبب الانقلابين، تغيرت حياة الملك بشكل كبير وتغيرت معها حياة كل من في القصر، وأصبح الهاجس الأمني يسكننا كليا، بل أصبحت النظرة السائدة لدينا لمعظم الناس أشبه بنظرة اشمئزاز. فنحن، علويي المغرب الذين كنا نفتخر بأننا نتميز عن ملكيات أخرى في الشرق بكوننا أصليين، عكس هؤلاء الذي كنا نعتبرهم من صنع القوى الغربية، أصبحنا مع الانقلاب نشعر بأننا مثلهم ناقصو شرعية، وأصبح يتملكنا خوف شديد على المستقبل. ومثل هذا الشعور سيكون محددا في الكثير من التصرفات والسلوكات التي ستحصل فيما بعد. وهي وضعية لم يخرج منها الحسن الثاني نسبيا إلا مع المسيرة الخضراء.

المرحلة الثانية، تمتد من سنة 1983 إلى سنة 1994. وخلالها، أصبحت في احتكاك يومي ومباشر مع الملك. ذلك أنه مع وفاة الوالد أصبحت جزءا من أسرته الصغيرة وأصبح هو بمثابة العم الذي يشرف على تربية أبناء أخيه. ومن ثم، أخذ مكان الوالد. وهذه التجربة كانت تأسيسية بالنسبة لمساري الشخصي و تكويني السياسي.

فالحسن الثاني كان قد وصل إلى القمة. فلم تعد الملكية منازعا فيها أو محل نقاش، ولم يعد هناك من ضمن رواد الحركة الوطنية من يمكنه أن ينافس الحسن الثاني شرعيته وأن يكون مصدر إلهام لعموم الناس أفضل منه. والأكثر من ذلك، الإشعاع الدولي الذي أصبح له، سواء في إفريقيا، من خلال العلاقة التي نسجها مع دول مثل التشاد و السينغال والكوت ديفوار و الزايير و غينيا، أو في الشرق الأوسط، عبر الدور الذي أضحى يلعبه في القضية الفلسطينية. وكان يحرص بشكل شديد على ضمان علاقات جيدة مع فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. ومثل التوازن في علاقته بفرنسا والولايات المتحدة إحدى الركائز الأساسية لسياسته الخارجية، حيث كان يحرص على ألا تؤثر علاقته مع إحداهما على علاقته بالأخرى. فقد كان يستثمر علاقته مع فرنسا لكي يلعب أدوارا جنوب القارة الإفريقية، وكان يعتمد على علاقته بالولايات المتحدة لكي يلعب أدوارا بالشرق الأوسط.

وفي سياق العلاقات التي ربطها مع هذه الدول، يقال الكثير عن علاقته بإسرائيل، بل إن هناك من يذهب أبعد من ذلك حين يتحدث عن علاقته بالموساد. لكن بالرغم من هذا الذي يقال، فقد ظل الملك رافضا أن تكون علاقته مع الدولة العبرية على حساب الفلسطينيين، بل ظل رافضا رفضا كليا الالتقاء العلني والرسمي مع اليمين الإسرائيلي، بل إن طلبات عديدة لبيغن وشامير ونتنياهو، وغيرهم من زعماء الليكود، بغرض الالتقاء به كان الحسن الثاني يجيب عليها بالرفض. فتعامله مع إسرائيل كان من منطلق الواقعية السياسية.

وإذا كان قد نسج علاقات مع هذه الدولة، فذلك لأنه كان، إلى جانب الرئيس التونسي الحبيب بوركيبة، من الزعماء العرب الأوائل الذين أدركوا أن إسرائيل لن تمحى من خريطة الشرق الأوسط. وهو موقف لم يكن يخفيه. وأستحضر هنا ما قيل لي من أن الملك محمد الخامس كان قد أرسله إلى لبنان لكي يطلب يد أمي للزواج بأخيه. وبينما كان موجودا وسط عائلة أمي، سار هناك نقاش حول القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي. وأمام ذهول الجميع، قال الحسن الثاني لماذا لا نفتح سفارات لإسرائيل في الدول العربية ونربط معها علاقات وننهي هذا الصراع. ومثل هذا الكلام كان من الصعب الجهر به في ذلك الوقت، سيما في دولة عربية معنية بشكل مباشر بهذا الصراع. لقد كان يعرف متى ينبغي خوض الحرب ومتى يجب أن ندخل السلم. وقد شهدت كيف كان مصرا على الدخول في الحرب إلى جانب مصر و سوريا سنة 1973.

في هذه المرحلة، سيتعرض الحسن الثاني من جديد لصدمات ستغير مجرى حياته، وستجعلنا أمام ملك في التسعينيات مغاير للملك في السنوات السابقة على ذلك. الصدمة الأولى كانت مع أحداث دجنبر 1990، التي شكلت مفاجأة كبيرة بالنسبة إليه، وجعلته يدرك أكثر أن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية لها مداخل سياسية بالدرجة الأولى، وأصبح هاجسه الجديد يتمثل في كيفية معالجة الجبهة الداخلية. ومن هنا، يمكن إدراك كيف أنه بدأ يخطط لإشراك المعارضة في الحكم. أما الصدمة الثانية، فتمثلت في التحولات الكبرى التي عرفها العالم مع بداية تسعينيات القرن الماضي، وهي التحولات التي أفقدته نوعا ما توازنه الدولي وجعلت أدواره الخارجية تتقلص بشكل كبير.

فمع انهيار جدار برلين، كان يعتقد أن المعسكر الفائز، أي المعسكر الرأسمالي الذي كان هو من المناصرين له، سيكافأ على هذا الانتصار، ولكن الذي حصل هو أن العالم دخل في دوامة من الفوضى اللامنتهية. ومع المسلسل الذي دخلته القضية الفلسطينية، بعد مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو، أصبحت القوى الكبرى تؤطر الأدوار التي يمكن أن يلعبها كل طرف. أما حرب الخليج فقد خلطت الأوراق. فتحت ضغط الشارع المغربي، لم يقو الملك على المشاركة بشكل مباشر في تحرير الكويت، بينما سوريا تمكنت من ذلك.

وأمام فقدانه لتوازنه على هذه المستويات، سارع إلى البحث عن لعب أدوار له في مناطق أخرى، كالبلقان بصفة خاصة، منطلقا في ذلك من ثقله الديني. ولكن ذلك لم يتحقق. أولا، لأنه أخطأ في تقدير طبيعة الصراع الحاصل في يوغوسلافيا سابقا حين اعتبره ذا طابع ديني مع أنه كان صراعا عرقيا بامتياز. وثانيا، لأن الرئيس الروسي بوريس يلتسين لم يسهل مهمته التي كان يحاول أن يقوم بها في رأب صدع النزاع الروسي- الشيشاني.

المرحلة الثالثة، تمتد من 1994 إلى 1999، وفيها أصبحت أكثر استقلالية في مواقفي، كأن أتحدث لقنوات أمريكية أو أكتب مقالات، أو ألقي محاضرات، حيث كان يستحيل علي أن أستمر معه في نفس القالب الرسمي. ولكن من خلال متابعتي له، كنت أحس بأنه كان يفكر في ضرورة بناء نظام جديد وكنت أشعر بأنه يتوفر فقط على ملامح هذه النظام، ولكن كانت تنقصه التفاصيل. وإذا كان دافعه للتفكير في هذا النظام هو ما قلته عن الصدمات التي واجهته في هذه الفترة، فإن دافعا أساسيا كان الأكثر حضورا في ما كان يفكر فيه. إنه المرض الذي أصبح يحكم عليه بالموت. فقد جعله يشعر بأنه ارتكب أخطاء ويجب عليه أن يعود لمحيطه الطبيعي الذي هو محيط الحركة الوطنية. فإذا كانت تركة حقوق الإنسان ثقيلة على الصعيد المعنوي، فإن التركة الاجتماعية كانت بالنسبة إليه أكثر ثقلا. وفي كل ذلك، لم يكن هدف الحسن الثاني تأسيس الديمقراطية في حياته، بقدر ما كان هاجسه الأساسي هو ترتيب مرحلة ما بعد وفاته. وفي أكثر من مرة، كان يقول لي بأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأنه لن يكون مثل خوان كارلوس في إسبانيا، لكن بوسعه أن يضع الأسس لمثل هذا التطور، إن اختاره المغاربة مع ابنه. هكذا، عشت الحسن الثاني وهكذا عايشته خلال هذه المراحل الثلاث. وبوسعي الآن أن أقول إنه كان ذا شخصية مركبة، بالرغم من أن من يعرفه يمكنه بسهولة أن يتكهن بموقفه في ظرف معين، سواء في التعاطي مع شخص ما أو مع أزمة ما. كان التداخل كبيرا بين الحسن الثاني الشخص والحسن الثاني الملك. ربما كانت له حياة خاصة، أو ״حديقة سرية״، كما سماها البعض، ولكن طبيعة النمط التقليدي للحكم السائد كان يفرض عليه أن يكون ملكا منذ اللحظة التي يستيقظ فيها إلى اللحظة التي يذهب فيها إلى فراش النوم، إلى الدرجة التي جعلته حتى في بعض اتصالات الدفء يكون الطابع المهيمن عليها هو طابع رئيس الدولة.

قد لا أكون موضوعيا في هذه الشهادة، أنا الذي عانيت الكثير في المحيط الملكي وتمتعت، في نفس الوقت، بالكثير من اهتمامه. ولكن الذي لا شك فيه هو أنه كان يعتبر الحفاظ على الملكية وخدمة مصالح البلاد فوق أي اعتبار، وأنه كان رجل دولة بامتياز.